موسيقى

بعد إتمام دراسته الابتدائية، اختير رضوان للتعلم بمدرسة الرشيدية المقدسية. لم يكن له أي اهتمام موسيقي، كان يتمنى أن يصبح مهندسا ميكانيكياً. لكن الأقدار هيأت له تعارفاً بموسيقار يدعى ميشيل ديرملكنيان، كان الباب الأول الذي دخل منه إلى عالم الموسيقى

سهيل رضوان
المعلّم الأول

رحل يوم السابع من أكتوبر 2023 (فيسبوك)

هيثم أبوزيد

يغلب في عرف الناس أن يكون بلوغ سن الستين محطة للتقاعد والراحة، لكن الموسيقي الفلسطيني ابن مدينة الناصرة، سهيل رضوان جعل من لحظة التقاعد منصة انطلاق لعمل دؤوب متواصل، أسفر عن ميلاد فرقة الموسيقى العربية، التي ضمت 18 عازفاً من أمهر الموسيقيين، وحرصت على تقديم التراث الموسيقي الشرقي، والأعمال الغنائية لأهم الملحنين والمطربين العرب. انطلقت الفرقة في عام 1991، فأكسبت جبهة الكفاح الفني لـ«عرب الداخل» قوة وزخماً وحضوراً، وأثبتت أن سنوات الاحتلال، والاعتراف الدولي بقيام إسرائيل على أراضي فلسطين التاريخية، وحمل جوازات السفر الخاصة بالدولة العبرية، كل ذلك لم يكن ليؤثر في الانتماء العربي ولا الهوية العربية لأصحاب الأرض على اختلاف أديانهم وتوجهاتهم السياسية. فالجماهير التي ترحب بعزف البشارف والسماعيات، وتطرب لأداء القصائد والموشحات، وتتمايل مع أغنيات عبد الوهاب وأم كلثوم، لا يمكن أن تدير ظهرها للتاريخ ولا للثقافة، ولا أن تنقطع عن جذورها الفنية، التي تمثل أحد أهم مظاهر الوحدة الثقافية في مدن فلسطين التاريخية. ولد سهيل رضوان عام 1931، أي أنه عاش 17 عاماً قبل قيام دولة الاحتلال. أبوه من قرية البروة، التي اشتهرت بكونها قرية الشاعر محمود درويش. لكن بلدات فلسطينية أخرى رعت رضوان: ولد في بيسان، وعمد في الناصرة، وتعلم في مدارس عكا والقدس، وتنقل مع أسرته إلى صفد وغزة. يتذكر حياته في الناصرة قبل النكبة، ويتذكر لحظات سقوط المدينة في يد العصابات الصهيونية قائلاً: «كنا نعيش في عمارة البوليس يوم جاؤوا واحتلوا المدينة، اضطررنا إلى النزوح بعدما رموا قنابل على العمارة». بعد إتمام دراسته الابتدائية في الناصرة، اختير رضوان مع ثلاثة طلاب للتعلم في مدرسة الرشيدية المرموقة في القدس. في تلك الفترة، لم يكن له أي اهتمام موسيقي، أو بتعبيره: «كنت في واد والموسيقى في واد». كان يميل إلى الرياضيات، ويتمنى أن يصبح مهندسا ميكانيكياً. ثم جاءت النكبة، وتبددت معها الآمال. لكن أقدار الفن في الناصرة هيأت له تعارفاً بموسيقار أرمني يدعى ميشيل ديرملكنيان، كان الباب الأول الذي دخل منه إلى عالم الموسيقى. ففي عام 1952، انضم إلى جوقة الطليعة التابعة لحركة الشبيبة الشيوعيّة، التي يرأسها ديرملكنيان، وبدأ بدراسة الموسيقى معه. وفي فترة وجيزة، صار رضوان أول معلم موسيقي عربي في البلاد بعد النكبة، لكن وزارة التعليم الإسرائيلية أبعدته مع عدد من المعلمين بتهمة الشيوعية. في أوائل الخمسينيات، صار أول مدرس للموسيقى في الناصرة، وتوثقت علاقته بالموسيقى الدينية، فقاد جوقة الترانيم الخاصة بكنيسة مار يوحنا الإنجيلية في حيفا، ثم قاد جوقة أخرى تابعة للكنيسة الأورثوذوكسية في المدينة. كانت هذه الفترة مرحلة صقل وتدريب وتحصيل للخبرات العملية. كان رضوان يرى أن لدراسة الموسيقى دوراً مهماً في تنمية وعيه بأهمية التراث في حضارة الشعب الفلسطيني، وتنمية وشعوره بالمسؤولية تجاه وطنه، وإشعال خوفه من اندثار ما تبقى من تراث موسيقيّ شعبي. مع دخول عقد الستينيات، قرّر رضوان أن يستقر في مدينة حيفا. وهناك بدأت خطته لنقل خبراته الموسيقية إلى الأجيال الجديدة. أسس دائرة للموسيقى العربية في معهد «روبين» للموسيقى، ثم تولى إدارة المعهد نحو عشر سنوات، استطاع خلالها أن يكوّن جيلاً من معلمي الموسيقى ومن المطربين والعازفين الذين صاروا لاحقاً نجوم المشهد الفني في مدن فلسطين التاريخية. ترقى رضوان في السلك الإداري لوزارة المعارف والتربية، وأصبح مفتشاً لمادة الموسيقى بالوزارة التي كلفته بوضع ثلاثة كتب للأناشيد بالمدارس العربية.

سارت حياة رضوان الفنية في ثلاثة خطوط أساسية متوازية: خط التربية والتعليم والاهتمام بموسيقى المدارس العربية، وخط الاهتمام بالمواهب وتأهيل الفنانين، وأيضاً خط التحصيل العلمي الأكاديمي. في عام 1971، أنهى المستوى الأول من دراسة اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة حيفا، ليتحق بعدها بمعهد روبين في القدس، مدة ثلاث سنوات أهلته لنيل الماجستير في الثقافة الموسيقية من جامعة القدس عام 1976، وعين معلماً للموسيقى في دار المعلمين العرب بحيفا. وفي هذه الفترة أيضاً، كثّف الرجل نشاطه في جمع التراث الشعبي من الزجل الغنائي، وقدم عدة برامج إذاعية وتلفزيونية، وفي الثمانينيات أصدر كتاباً تربوياً للمدارس العربية بعنوان «كلمة ونغم»، ترجم إلى العبريّة. يروي رضوان طرفاً من جهوده لجعل الموسيقى التراثية الفلسطينية والغناء الشرقي حاضراً دائماً. وبالطبع، وباعتباره من «عرب الداخل»، لم يكن أمامه إلا التلفزيون الإسرائيلي. يقول: «بين عامي 1972 و1984، أنتجت برامج موسيقيّة، بدءاً من البرنامج الموسيقي «من أجوائنا الغنائيّة»، ثمّ برنامج «من لياليا»، الذي شمل أغاني شعبيّة وأدواراً ومواويل منوّعة ومواويل نصراويّة، ثمّ أنتجت برنامج «من ألحاننا المحليّة»، لدعم وإنتاج الملحنين والمغنين المحليين، وأخيراً عام 1980 قدمت برنامج «الموشحات»، الذي أشرف عليه الموسيقي زكي سرور». في عام 1990، خرج سهيل رضوان من خدمة وزارة المعارف للتقاعد، لكنه بدأ فصلاً مهماً جديداً من مسيرته الفنية الطويلة، متمثلاً في تأسيس فرقة الموسيقى العربية التي بدأت عملها في معهد روبين بحيفا، قبل أن تنقل عملها إلى الناصرة ضمن جمعية تطوير وتنمية الموسيقى العربية. حرص رضوان على طابع شرقي يميز الفرقة في كل أنشطتها. ظل الرجل طوال حياته يذكر باعتزاز أن الفرقة التي أنشأها حافظت على «أصالتها» من ناحية تركيبها بآلاتها الوترية وآلات الإيقاع الشرقية والناي، وتجنب آلات مثل الغيتار والبيانو والأكورديون وغيرها. في سنواتها الأولى، بدأت الفرقة في تنظيم مؤتمرات الموسيقى، والمهرجانات الفنية الغنائية. وبعد انتصاف التسعينيات، بدأت الفرقة عروضها في مهرجانات دولية وعلى مسارح كبرى، أهّلها انضمام الأصوات الواعدة لتقدم عروضاً في فرنسا والسويد، وهولندا، وإيطاليا، وإسبانيا، والنمسا، والمغرب، وأوزباكستان، وتركيا، وعدد من المدن الأميركية. وفلسطينياً، قدمت الفرقة محافلها في الناصرة، وبيت لحم، والقدس، ونابلس، وجنين، ورام الله، وبيت لحم، وأريحا. تعتز الفرقة بمحفل أحيته في قطاع غزة بمشاركة فيوليت سلامة، أقيم على مسرح الهلال الأحمر الفلسطيني في خانيونس لتدشين القناة الفضائية الفلسطينية في عام 1998.

> أسس دائرة للموسيقى العربية في معهد «روبين»
>
> حرص رضوان على طابع شرقي يميز فرقته في كل أنشطتها

يتذكر المهتمون بالشعر قصيدة أحمد شوقي في رثاء مصطفى لطفي المنفلوطي، التي استهلها بقوله: «اِختَرتِ يَومَ الهَولِ يَومَ وَداعِ.. وَنَعاكِ في عِصفِ الرياحِ الناعي». فقد يشيّر أمير الشعراء إلى أنّ وفاة المنفلوطي صادفت يوم محاولة اغتيال سعد باشا زغلول، فانشغل المصريون بهذا «الهول» عن توديع المنفلوطي بتشييع لائق. موقف مماثل أعاد نفسه مع سهيل رضوان، الذي لا يكاد يجد الباحث أي خبر منشور عن رحيله، رغم مكانته الكبيرة وتاريخه الفني الممتد، لكن العجب ينقضي، حين نكتشف أن الرجل اختار توديع هذا العالم صباح السابع من أكتوبر/تشرين الأول الماضي، مع بدء «طوفان الأقصى»، الذي شغل فلسطين والمنطقة والعالم.

كان رضوان يرى أن عرب 1948، فرع من شجرة كبيرة هي فلسطين، وأن الاحتلال يحاول أن يقطع هذا الفرع عن شجرته الأم. وكان يرى أن شحذ الذاكرة من أهم وسائل المقاومة، فكان يختار ما يعرف بـ«يوم استقلال إسرائيل»، ليذهب إلى قرية أبيه، البروة، ليقف على أطلال الذكريات والحارات، وعلى أنقاض الكنيسة التي هدِمت قبل أعوام، ليتذكر الدار التي كان يسكنها الجد رضوان، الذي تشبّث بأرضه ولم يغادرها بعد دخول جيش الهجناة الصهيوني. إلى أن مات في أرضِهِ بعدِ فترة وجيزة، ورفض الاحتلال تسليم جثته، أو التعريف بمكان قبره. كان سهيل رضوان قصة كفاح ونضال موسيقي، استمرت لنحو 90 عاماً.

عمر أبولو... الحطام الذي تلا النهاية

علي موره لي

في نوفمبر/تشرين الثاني المقبل، سيبدأ الاقتراع من أجل انتخاب رئيس جديد للولايات المتحدة الأميركية. على الرغم من أن المناظرة الأولى، التي جرت الأسبوع الماضي بين المتنافسين، الرئيس الحالي جو بايدن والسابق دونالد ترامب، أثارت الجدل حول أهليّة كليهما لإدارة البلاد، فإن كلاً من الحزبين الديمقراطي والجمهوري، ما زال إلى الآن متمسّكاً بمرشّحه لمعركة انتخابية حامية، لنتائجها تداعيات تاريخية، تتعدى «العالم الجديد» إلى العالم كله.

في غمرة الترقب والقلق على مصير الولايات المتحدة، ومعها مصير النظام الدولي، إذ لا تزال القوة الأكبر نفوذاً فيه وتأثيراً من الناحية العسكرية والاقتصادية والمعرفية، تتجه أنظار بعض المراقبين إلى نجمة البوب الأميركية تايلور سويفت. في مقالة نشرت في فبراير/شباط الماضي، للباحثة في شؤون الاتصال، والسياسة والمجتمع، عميدة جامعة هيرتي في برلين، آندريا روملِه، تحدثت فيها عن أن أكثر من نسبة 50% من الأميركيين اليوم، يعتبرون أنفسهم من المعجبين بسويفت، وأن نسبة 18% منهم ستصوّت لمصلحة أيّ من المرشحين، في حال أبدت الفنانة دعمها وتأييدها له.

ليست سويفت الأيقونة الجماهيرية الأولى في تاريخ صناعة الترفيه الأميركية التي تمتلك القدرة على التأثير في الحياة والثقافة، فضلاً عن السياسة. لقد سبق للمغني فرانك سيناترا، منتصف القرن الماضي، أن آزر حملة المرشح الديمقراطي فرانكلين روزفلت، إلى أن أصبح رئيساً إبان الحرب العالمية الثانية. كما أن الإعلامية الشهيرة أوبرا وينفري، كانت قد أيّدت المرشح الديمقراطي باراك أوباما أول الألفيّة الحالية، ليكون أول رئيس أميركي من أصول أفريقية.

الفارق هو أن قاعدة المعجبين التي تتمتع بها سويفت، ممن يُعرفون بلقب «ذا سويفتيز»، قد بلغت سعة هائلة غير مسبوقة، جعلت من ابنة الـ34 عاماً تتحول إلى ظاهرة تستدعي التأمل والدراسة، إذ بات بالإمكان النظر إليها بوصفها قوة إعلامية ومالية وثقافية خارجة عن المؤسسة، تملك أسباب التأثير في مسار الأحداث. بحسب وكالة رويترز، بلغ أعداد الذين ارتادوا عروضها الثلاثة التي قدمتها في العاصمة السويدية استوكهولم، كجزء من جولتها الفنية المعنونة «حقبات» (Eras) في مايو/أيار الماضي 180 ألف شخص، جاء نصفهم من خارج البلاد، ما درّ على اقتصاد المدينة عوائد تقدر بقيمة 81 مليون دولار. أما في موطنها، الولايات المتحدة، وبحسب وكالة نوموراً للتحليل الاقتصادي، فقد زادت عروضها من إنفاق المستهلك الأميركي بقدر خمسة مليارات دولار على مدار أشهر الجولة الفنية الستة. منها مليارا دولار نتاج مبيعات التجزئة من قمصان وتذكارات تحمل اسم النجمة أو صورتها.

قد تعود سعة القاعدة الجماهيرية التي تحظى بها تايلور سويفت في جزء منها إلى تطور تكنولوجيا الاتصالات وبروز دور وسائل التواصل الاجتماعي كوسيط ترويج فنّي معولم، أجادت سويفت استخدامه بفرادة، وذلك عبر تحويل العلاقة التي تربطها مع جمهورها إلى ما يشبه كوناً افتراضياً موازياً، حالماً وفانتازياً، بات يسمّيه النقاد تايلورفيرس (Taylorverse).

يتميز هذا الكون «التايلوري» باتّساق المرويّة التي قدّمَتها الفنانة إلى جمهورها، على الأخص الفتيات. فمسيرتها الفنية، سواء إنتاجها من الأغاني أو تمظهرها في الحياة العامة، واصلت التطور باتّساق ملحوظ مع مراحل نموها البيولوجي والفكري دونما انقطاع أو غياب عن دائرة الضوء. لقد عاصرها معجبوها منذ أن كانت نجمة طفلة ومنذ كانوا أطفالاً صغاراً، ثم مروراً بمرحلة المراهقة، وصولاً إلى عتبة الرشد، وعليه، تماهوا مع سيرتها الذاتية كما لو كانت تجلّياً أسمى لسيرة كلٍّ منهم، كفتاة أميركية عادية، تؤرخ لفصول حياتها بالأغنية، لتؤسطر ضمن فضاء التايلورفيرس.

ولئن تحولت سيرة حياتها العادية إلى قصة نجاح أسطورية وأمثولة في العصامية وتمكين المرأة، فإن صورة الفتاة الأميركية الحالمة والرقيقة بقيت عالقة بابنة ولاية بنسلفانيا المحافظة، وتحوّلت إلى علامة تجارية، لا بل إن صعودها إلى النجومية، بحسب المرويّة التايلورية، تم بدفع نسوية مؤنثة متمثلة بخطاب الافتقار إلى الرجولة، لا بتجاوز الأنوثة والتخلي عنها سعياً وراء نموذج نسويّ مُذكّر، كما ورد في أغنيتها The Man سابعة ألبومها المعنون Lover من إنتاج سنة 2019، حين غنّت: «سئمت من الركض بسرعة قدر المستطاع، وأنا أتساءل ما إن كنت لأصل أولاً لو كنت رجلاً، إذ إني لو كنت رجلاً، لكنت الرجل».

يلقى مضمون التمكين النسوي تخالفيّ الجنس (Heterosexual) سواء أكان مستبطناً بين سطور كلمات الأغاني أو معبّراً عنه بسرديّة مقاطع الفيديو، ومن خلال المظهر الشخصي في الفضاء العام، صدى متناغماً لدى التيار السائد بين أغلب الأميركيات، من بين الفتيات تحديداً، فسويفت تحسن إمساك عصا الخطاب الثقافي من المنتصف، مبتعدة عن الحواف التي قد تؤدي بشعبيتها إلى الانحسار، فالاقتصار على شريحة مجتمعية دون أخرى، أو الاصطفاف خطابياً وراء هوية سياسية في وجه هوية مقابلة.

> يتضمن الألبوم أنماطاً من أجناس عديدة ويفتقر إلى هوية جامعة

من حفل لأبولو في باريس، الثاني من يونيو 2024 (كريستي سبارو / Getty)